

الاستبطان في علم النفس: من الأصول إلى المختبر

Introspection in Psychology: From Origins to Laboratory

تاريخ النشر: 2021/06/10

تاريخ القبول: 2021 /05/13

تاريخ الإرسال: 2021 /04/29

موفق كروم¹ سرير أحمد بن موسى²¹ جامعة بلحاج بوشعيب، عين تموشنت، الجزائر، *Email : elmouaffak@yahoo.fr*² جامعة بلحاج بوشعيب، عين تموشنت، الجزائر، *Email : set2006@yahoo.fr*

الملخص:

يهدف البحث الحالي إلى الانفتاح على دور وقيمة الاستبطان في المعرفة وبالضبط في علم النفس. وذلك بإبراز آراء مختلف التيارات الفكرية والتركيز خاصة على المدرسة السلوكية باعتبارها أهم مدرسة انتقدت الاستبطان منذ ما يقرب من 100 سنة بحجة أنه منهج غير علمي، رافضة استخدام هذا المنهج في علم النفس رفضاً صريحاً.

وتوصلت الدراسة إلى أنه بالرغم من الانتقادات الكثيرة التي تعرض لها الاستبطان إلا أنه أكثر انتشاراً مما يعتقد البعض أحياناً ولا يزال يحتفظ بجدواه. ولا يمكننا الاستغناء عنه. ولكن يمكننا جعله أكثر قبولاً بتطويره وتوسيع حدوده. الكلمات المفتاحية: استبطان؛ فوندت؛ المدرسة السلوكية؛ المعرفة؛ نقد.

المؤلف المرسل: موفق كروم، *Email : elmouaffak@yahoo.fr*

Abstract:

The present research aims to open up to the role and value of introspection in knowledge exactly in psychology. by clarifying the different intellectual opinions, and by focusing in particular on the behavioral school as the most important school that criticized introspection for nearly 100 years ago on the basis that it is an non-scientific approach refusing to use it explicitly in psychology. The study concluded that although the many criticisms of introspection, it is more widespread than others believe and still retains and believe in its usefulness, and we cannot do without it, but we can make it more acceptable by developing it and widening its borders.

Keywords: behavioral school ; critique ; Introspection ; knowledge; William Wundt.

مقدمة:

ما يميز التفكير العلمي أنه يضم الأشياء المتشابهة تحت مبدأ واحد أو قانون واحد. فحينما يبحث العالم في جزئية من الجزئيات فهو لا يهدف إلى ان يصل إلى تفسير لهذه الجزئيات بالذات. بل يبحث في هذه الجزئية وتلك التي تشبهها ليصل بعد ذلك إلى وضع قانون عام ينطبق على تلك الجزئيات التي خضعت للبحث (دويدار، 1999، ص72). يسهل هذا الأمر اذا كانت الظاهرة ملموسة. لكن الظواهر إما أن تكون فيزيائية أو نفسية. لذا من المهم التمييز بين ادراك الظواهر النفسية والظواهر الفيزيائية. ربما هذا السبب الذي عجل بظهور مفهوم جديد في علم النفس التجريبي، هو الادراك الداخلي للظواهر النفسية، وهو بطبيعة الحال يعارض الادراك الخارجي وفقا للتمييز الأساسي بين الظواهر الفيزيائية والنفسية. يدور الإدراك الخارجي حول ظاهرة فيزيائية بينما يدور الإدراك الداخلي حول الظواهر النفسية (Maxime, 2013). إلا أن طريقة البحث هنا تبقى مختلفة عن طريقة البحث في غيره من العلوم، لاعتمادها على الملاحظة



الذاتية أو التأمل الباطني وهو ما يعرف في علم النفس بـ"الاستبطان L'introspection". فالاستبطان أو التأمل الباطني هو منهج ينفرد به علم النفس عن غيره من العلوم، وهو طريقة من طرق الملاحظة، يتأمل الفرد فيها ما يجري في شعوره. إنه نظر وعي فردي لذاته بذاته، يهدف تنظيري: سواء لأجل معرفة الفكر الفردي بوصفه فردياً، أو لأجل معرفة الفكر الفردي كنموذج قابل للرصد مباشرة من نماذج النفس البشرية عموماً، أو حتى كنموذج لكل فكر مهما يكن (لالاند، 2001). ومعنى هذا أن الاستبطان هو ملاحظة النفس الفردية لذاتها كغاية نظرية، وهذه الغاية قسمان: الأول معرفة النفس الفردية من جهة ما هي فردية، والثاني معرفة النفس الفردية من جهة ما هي نموذج للنفس البشرية العامة، أو نموذج لكل نفس مهما يكن نوعها. ويسمى هذا الاستبطان بالتأمل الباطني (صليبا، 1982). اتبع علماء النفس التجريبيون هذا المنهج في دراساتهم للعمليات النفسية وذلك بتعريض الأفراد لمؤثرات معينة. وقد أدت هذه الطريقة الى معرفة العناصر المختلفة التي تتكون منها الإحساسات. (مطاوع، 1981، ص12). هذا التحديد الأولي لمفهوم الاستبطان من حيث هو مدخل لأحوال الفرد الخاصة ومحتوياتها الذهنية، مع إمكانية نقلها إلى الآخر، لا يحمل أي طابع إشكالي، مادام كل فرد منا باستطاعته وصف أحواله الداخلية (انفعالاته، أحلامه، طريقة استدلاله، ذكرياته، تخيلاته...). لكننا متى تجاوزنا المستوى الدلالي باتجاه المستوى الاستيمولوجي في مجال علم النفس التجريبي، أصبح المفهوم إشكالياً.

لقد وجهت العديد من الانتقادات إلى هذا المنهج وهي: أنه غير علمي لأنه يقوم على اساس أن حالة الفرد الشعورية لا يستطيع أن يتأملها إلا هو. ومن ذلك يستحيل على الفرد دراسة نفسه واستبطانها في حالة النشاط النفسي الحاد كما هو الحال في الانفعالات الشديدة. كما أنه أثناء تأمله الذاتي مضطر إلى تشتيت انتباهه بين عمليتين الأولى في حالته النفسية الراهنة ذاتها والثانية في تأملها وهذا التشتيت يؤدي إلى عدم دقة النتائج. وبالتالي لا يمكن الاعتماد عليها للوصول إلى المبادئ والقوانين العامة (السامراتي وآخرون، 2011، ص61).

هناك موقفين متناقضين حول موثوقية ودقة البحث الاستبطاني. الموقف الأول يخص استحالة الوصول المباشر إلى التجربة الشخصية للفرد دون خطأ. وقد نهج هذا الموقف م ن قبل العديد من الفلاسفة على غرار ديكرت، ديفيد هيوم وإدموند هوسرل، وألفريد أير، الذين أرادوا بذلك تأمين أساس مطلق للمعرفة. ومن جهة أخرى دافع عنها بعض فلاسفة العقل الوظيفي بنوع من التحفظ. وفقاً لهم، بعض الأحكام حول تجربة المرء صحيحة بشكل أو بآخر إما لأنها تحقق ذاتها، أو لأنها معبرة وليست تفسيرية. كما انه يوجد موقف آخر أكثر تطرفاً بوضع قائمة كبيرة من الاعتراضات ضد أي معرفة قائمة على الاستبطان. وبالتالي فالأحكام الاستبطانية هي مجرد استنتاجات وليست مجرد معلومات إدراكية مباشرة (Bitbol & Petitmengin, 2013).

قليلة هي الدراسات التي دافعت عن موضوع إعادة الاستبطان الى الواجهة. ونذكر هنا في هذا المقام دراسة ساكور (sakur, 2009)، بعنوان: L'introspection en psychologie expérimentale وقد هدف من خلالها إلى إبراز التناقضات القائمة بين تيارات علم النفس حول موقف كل واحد منهم من الاستبطان وما هي تداعيات ذلك على علم النفس التجريبي طوال القرن العشرين. كما نخص بالذكر دراسة ادوين (Edwin, 2009) بعنوان "حان الوقت لإخراج الاستبطان من الخزانة" It's Time We Brought Introspection Out of the Closet. وقد هدف من خلالها الى توضيح أهمية الاستبطان ومبيناً أن أحد الأسباب الرئيسية وراء قصور علم النفس كانت بسبب حظر الاستبطان من الساحة المنهجية لمدة تفوق المائة سنة، وأن هذا الحظر قد أعاق تقدم علم النفس من خلال التركيز على مشكلة دقة التقارير الاستبطانية الذاتية، وهو ما حد من فهمنا لمفاهيم مثل العاطفة والشعور والانفعالات الداخلية عوض التركيز على كيفية تطوير المهارات الاستبطانية.

دراسة اوريا كريجل Uriah Kriegel بعنوان دفاع متردد عن الاستبطان A hesitant defense of introspection. والتي يدافع فيها عن منهج الاستبطان موضحاً أنه لا يمكن دراسة الظواهر العقلية من خلال التجارب الواعية إلا بشكل استبطاني لذا

فإن أي فهم مشروع للعقل يجب أن يأخذ في الاعتبار الملاحظات الاستبطانية للتجارب الواعية (Uriah, 2013).

ومن جهته إريك شفيتزجيبيل Schwitzgebel في كتابه "حيرة الوعي". يقدم قضية مقنعة مفادها أن الاستبطان غير موثوق به. بمعنى أننا عرضة للخطأ في إصدار أحكام استبطانية حول تجربتنا الواعية. يدافع ديكلان سميثيز Declan Smithies عن الاستبطان مهاجماً أطروحة إريك شفيتزجيبيل من خلال مقال بعنوان: "On the unreliability of introspection الرد على عدم موثوقية الاستبطان" بالقول: "أن اتباع المنهج الاستبطاني لا يحتوي على كل المساوئ التي يظهرها الكاتب". (Declan, 2013) ومن هنا نجد أنفسنا في خضم هذه التناقضات بين نقبضين. ولا بد من تحديد وجهات نظر كل تيار.

2. الاشكالية:

الاستبطان هو تأمل الفرد في أفكاره وأحاسيسه ومشاعره، أي الانكفاء على ذاته متأملاً في عملياته العقلية في حال تعرضه لموقف استثنائي. ومعرفة النفس تقوم على أساس تدريب أفراد تدريباً جيداً على التأمل في ذواتهم والتعبير عن مشاعرهم لغويًا اثر تعريضهم لخبرات انفعالية أو رؤيتهم لضوء أو سماعهم لصوت معين. ثم يقدمون تقاريراً ذاتية يصفون فيها بالتفصيل الإحساسات والمشاعر التي أدى إليها المثير فيهم (أبو غزال، 2015، ص 23). الاستبطان اذن هو وصف لحالة الشعور او تأمل لما يجول في الذهن، انه إحساس بالإحساس وانعكاس الشعور على نفسه. (دويدار، 1999، ص 51). لكن في المقابل الاستبطان، عند ذكره، يعتبر عمومًا معرفة لا يمكن الوثوق بها عند البعض، ومنهج إدراكي لا يمكن الاعتماد عليه. ومن أجل أن تكون المعرفة مرتبطة ومرتبطة ومصنفة كعلم فانه من الضروري تأكيد ثبات الحقائق (المليجي، 2000، ص 32). ومن هنا نجد أنفسنا بين تاصيلين نظريين وبذلك تتحدد إشكالية بحثنا في التساؤل: هل يعتبر فحص الذات لذاتها بصورة مباشرة كفيلاً بفهم السلوك الإنساني؟ وعلى هذا الأساس هل يعتبر هذا المنهج إضافة للمعرفة؟



3. الأطار النظري:

1.3 تعريف الاستبطان:

يستخدم الفلاسفة وعلماء النفس عادةً "الاستبطان" لتعني شكلاً من أشكال الملاحظة.

يقول فونددت سنة 1858 في مقدمة كتابه مقالات في نظرية الإدراك الحسي: "إن كل سيكولوجية تبدأ بالاستبطان (زيغور، 1993، ص 44). فما هو الاستبطان.

الاستبطان L'introspection من الأصل "introspectus" وهي كلمة لاتينية تنقسم إلى قسمين: "intro" والتي تعني داخل والكلمة "spectus" التي تعني النظر. والكلمة ككل تعني النظر أو الملاحظة الداخلية.

أما لغة "استبطان" جاء من الكلمة "استبطن" وجذرها "بطن" ومعنى استبطن في معجم المعاني الجامع - معجم عربي عربي: اسْتَبْطَنَ: اسْتَبْطَنَ يَسْتَبْطِنُ، اسْتَبْطَانًا، فَهُوَ مُسْتَبْطِنٌ، وَالْمَفْعُولُ مُسْتَبْطَنٌ.

اسْتَبْطَنَ أَمْرَ صَاحِبِهِ: عَرَفَ بَاطِنَهُ وَخَفَايَاهُ.

اسْتَبْطَنَ الْوَادِيَّ وَنَحْوَهُ: دَخَلَهُ

اسْتَبْطَنَ الْأَمْرَ: أَخْفَاهُ فِي نَفْسِهِ

اسْتَبْطَانٌ (اسم): مَصْدَرُ اسْتَبْطَنَ

اسْتَبْطَانُ الْأَمْرِ: إِخْفَاؤُهُ فِي النَّفْسِ

في علم النفس ملاحظة داخلية وتأمل ذاتي للحالات الشعورية التي يحس بها الشخص.

استبطن الأمر: عرف باطنه، ووقف على حقيقته. "استبطن نيات صديقه".



أما اصطلاحاً فـ"الاستبطان Introspection"، تأمّل ذاتي. يقوم الشخص فيه بفحص أفكاره ودوافعه ومشاعره الداخلية (الشرييني، 2004، ص 88).

وقد عرفه علماء النفس على أنه: منهج يتلخص في ملاحظة الفرد المدققة لإدراكاته ومشاعره وخبراته وانفعالاته ملاحظة متعمدة وصريحة وتهدف إلى وصف هذه الحالات وتسجيلها وتحليلها (دويدار، 1999، ص51). كما يمكن تعريفه على أنه الوصول إلى حالاتنا العقلية ومحتوياتنا، مع قدرة معينة على توصيلها للآخرين (Sackur, 2009).

الاستبطان بالمعنى العلمي إذن هو ملاحظة الشخص لما يجري في شعوره من خبرات حسية أو عقلية أو انفعالية.

2.3 الاستبطان من علم النفس الفلسفي إلى علم النفس التجريبي

الواقع أن الاتجاه الاستبطاني لم يكن وليد علم النفس بل كان ذلك قبله بسنين. وقد كان علم النفس في بدايته، نظرياً استبطانياً لمدى بعيد وذهنياً لدرجة كبيرة. وبالاختصار كان ميتافيزيقي الذوق لدرجة متناهية. كل هذا دفع أوجست كونت إلى لفت الانتظار للظهور التدريجي للعلوم، فميز بين ثلاث مراحل للتتري من اللاهوتية إلى الميتافيزيقية ثم إلى المرحلة الوضعية. وحاول أن يضع أساس علم جديد يعتمد على الوضعية. وكان يحاول دوماً وضع أسس صحيحة له من أجل دراسة الظاهرة الفردية أو الوحدة الفردية للإنسان وهو يقابل علم النفس الحديث إلا أنه رفض إطلاق لفظ علم نفس على هذا العلم بل أسماه (la moral). حتى يستطيع أن يفرق بين العلم الوضعي الجديد والعلم النظري الاستبطاني السابق. ثم جاء بعده ويليام فوننت وأسس أول مختبر لعلم النفس في جامعة ليبزيغ سنة 1879 وهكذا تم تأسيس علم النفس التجريبي ليصبح علم النفس فرعاً من العلم (المليجي، 2000، ص 31). ويبدو أن ويليام فوننت قد أعطى دفعة قوية للاستبطان من خلال اعتباره كمنهج وحيد لدراسة الخبرات الشعورية.



3.3 الاستبطان من وجهة نظر فونت Wundt

موقف فونت Wundt من الاستبطان مرتبط بأوليتين: الأولى تتعلق بتعريف علم النفس، والثانية تتعلق بالتطبيق العام لطرق العلم التجريبي (الملاحظة والتجريب) في علم النفس. من هاتين الأوليتين يشتق تصور ومسار معقد ومحفوف بالمخاطر للاستبطان. يعرف فونت الاستبطان بأنه علم التجربة المباشرة، وهذا يتعارض مع مفهوم التجربة الداخلية. موضوع علم النفس هو الشعور، لكن هذا الأخير لا ينبغي تمثله كمجال خاص ومغلق، يحتوي على موضوعات غير قابلة لأن تردّ إلى الأشياء المادية التي ندركها. ما يميّز علم النفس عن دراسة الأشياء المادية، هو كوننا نأخذ بعين الاعتبار (أولا) الشروط الذاتية للتجربة. المعرفة النفسية ليست نتاج ملكة خاصة للاستبطان، تكون بمثابة حسّ متميّز موجّه نحو موضوعات داخلية ويعطي الفرصة لملاحظة ذاتية فعّالة، بل إنها نتاج تغيّر لوجهة النظر التي نتبناها عن التجربة بصفة عامة. التجربة الإدراكية مثلا تتجه دوما من الداخل إلى الخارج، لكن باستطاعتنا تحديد الشروط الداخلية " في علم النفس يرى الإنسان دائما ذاته من الداخل، ويحاول أن يفسر ترابط الوقائع التي يقدّمها له هذا الإدراك الداخلي" (Wundt, 1886). للتجربة دوما وجهها ذاتيا، لكننا عادة ما نتجاهله أو نتغافل عنه لأنه لا يتماشى والمصلحة الحيوية للعضوية.

الاستبطان ليس ملاحظة يمكن أن تؤثر وتعديل ما يلاحظ، بل هو بالأحرى نظرة غير مباشرة، بالمعنى الذي يعني ملاحظة ما هو في العادة مغفل، لما يوجد في المحيط. عندما أستبطن فأنا لا أقوم بنظرة داخلية نشطة تحتاج إلى ملكة خاصة، ولكنني أرتكز على الشعور من حيث هو مجال قابل لاحتواء عدّة تمثيلات، مع مستويات حضور مختلفة. عندما أدرك يمكن أن أهتمّ إمّا بالموضوع المشكّل، وإمّا بالذرات الحسية المرتبطة به، والتي يقوم إدراكي بتحليلها. الاختيار الأول هو الاتجاه الطبيعي للإدراك، موجّه نحو الفعل، بينما الثاني هو الاتجاه الخاص بعلم الروح. ولكي يكون هذا ممكنا، من الضروري أن يحتوي الشعور على تمثيلات متعدّدة متزامنة من جهة. ومن جهة ثانية أن لا يكون الزمن النفسي تابعا للحظات منفصلة، بل ديمومة مستمرة، بحيث يبقى ما مضى لتوّه، حاضرا.

إن المماثلة هنا بين مجال الشعور ومجال البصر بنائية: فمثلما في المجال البصري نستطيع فصل نقطة التثبيت عن مركز الانتباه، كذلك في مجال الشعور نستطيع فصل التمثيل الحالي عن تمثيل المصلحة. انطلاقاً من هذه المماثلة نجد أن الاستبطان لا يتعلّق بتوجيه النظر لإعادة هذه الموضوعات لنقطة التثبيت، ولكن - وبدون تغيير هذه الأخيرة- بتوجيه الانتباه نحو محيط المجال. وإذا كان مجال البصر، وهو مجال يتطلّب التحكّم في الانتباه، يقتضي التدرّب، كذلك الاستبطان من حيث هو تركيز للانتباه على لحظات الشعور غير الراهنة، يستدعي هو الآخر تكويننا خاصاً لعلماء النفس.

يرى فونت في سياق الأثر الكانطي، أن عناصر الحياة النفسية تتميز بالسيولة، فهي وقائع وأحداث وليست موضوعات، حتى نستطيع أن نطبّق عليها الملاحظة البسيطة. لكنه يخلص إلى نتيجة معارضة لنتيجة كانط: في علم النفس نحن مجبرون على التجريب، أي على إنتاج شروط اصطناعية ومضبوطة للحصول على نتائج صحيحة. فونت يرى أنه من الممكن القيام بالملاحظات في علم النفس، ولكن فقط في مجال موضوعات الثقافة مثل اللغة والعادات (التي تمثل مجال ما يسمّيه علم النفس الاجتماعي)، حيث ترتبط العمليات النفسية بموضوعات ثابتة. أما بالنسبة لعلم نفس العمليات الأولية (الأساسية) يبقى التجريب هو الحلّ الوحيد.

الترابط بين الأوليتين السابقتين المرتبطتين بموضوع علم النفس ومنهجه (علم النفس هو دراسة للتجربة المباشرة، والتجريب ضروري لضبط ظواهر الشعور في سيولتها) يفرض انقساماً في علم النفس، بين علم نفس عمليات المستوى العالي (تذكّر، تخيل، حكم... إلخ) التي تمارس خارج المخبر بواسطة الملاحظة، وعلم نفس أولي نكون فيه مجبرين على التجريب بواسطة الاستبطان، ومنه ضرورة وضع مخابر لعلم النفس. ومع ذلك تبقى نتائج الممارسة الاستبطانية غير موثوقة، ويمكن تحسينها وتوظيفها علمياً بفضل المخبر. في المخبر يوكل عمل الاستبطان لمختصّين محترفين، ممّا يسمح بالتحكّم في وضعية ما وإنتاج مثيرات قابلة للتكرار. المخبر لا يحوّل المعطى الذهني، ولكنه يعطي إطاراً لكي يتقدّم للاستبطان بطريقة متكرّرة، وهو ما يسمح بالاقتراب أكثر من الثبات



اللّازم للدراسة العلمية. وكمثال على استعمال الاستبطان، تحديد العدد الأقصى للتمثيلات الحاضرة تزامنيا في حقل الشعور (Vattimo, 2002).

يشير فونت إلى أن القضية هنا تتعلّق بمشكل لا يمكن حلّه بواسطة الملاحظة الداخلية (الملاحظة الداخلية في مرحلة ما تغيّر من محتواها الحالي ممّا يخلّ بالتقييم). لذلك يقترح ضبط المسألة بواسطة التجريب الاستبطاني بالطريقة التالية: يضع تحت تصرّفه ميترونوم (بندول الإيقاع) ذو موجات قابلة للضبط، يسمح بتوزيع صوت جرس على الدقات خلال فترات منتظمة. التجربة تتعلّق بتغيير عاملي الميترونوم (موجة الدقة القاعدية والفترة بين أصوات الجرس) مع محاولة الحفاظ في الشعور على تمثيلات الدقات التي تمرّ. السؤال المطروح هو: مع ضبط محدّد للجهاز هل نستطيع الحفاظ في مجال الشعور على مجموع تمثيلات الدقات القاعدية بين صوتين للجرس؟ يؤكّد فونت أن موجة الدقة الأكثر ملاءمة هي حوالي دقتين في الثانية، وأنه في هذه الشروط يمكن لـ 12 تمثيلا مختلفا أن يبقى متمائزا في حقل الشعور. هنا نسجل نقطة أساسية وهي أن إجابة الذات ليست بالضرورة شفوية، وليست تقريرا شفويا مفضّلا لتجربة داخلية غنية ومعقّدة، لأنّ تعبير الإجراء التجريبي التي يقصد "ما يمكن المحافظة عليه في الشعور" ليس له معنى إلّا استبطانيا. الذات المجرّبة هي الوحيدة القادرة على الشهادة أنه في لحظة صوت الجرس الثاني تمتلك تمثيلا ذهنيا متميّزا عن الدقات الوسيطة.

نسجّل هنا ثلاث خصائص لاستبطان فونت:

إنه تجريبي بقدر ما تكون المنبهات قابلة للتكرار، مراقبة ومبسّطة.

لا يمكن أن يكون إلّا نشاطا لعالم نفس متدرّب ومتخصّص.

إنه فقير، بالمعنى الذي يدلّ على أن الذات ليست مطالبة بتقديم وصف مركّب لحالة داخلية، بل تقرير يتراوح بين ممكنين: فإما أن الملاحظ نجح في الحفاظ على كلّ سلسلة الدقات السريعة في فترة صوتي الجرس أو أنه لم ينجح في ذلك.



من هذا المثال يتضح أن فونت يرى أن الاستبطان لا يمكن تجنبه في علم النفس، لكن دوره يجب أن يبقى في حدود الضرورة فقط. إنه لا يطلب من الذات (بما فيها ذاته) تقديم تقارير استبطانية يمكن أن يكون محتواها دليلاً على نظرياته. بل يضع الذات في وضعية مراقبة، ويطلب منها توجيه الانتباه نحو طابع ذاتي للظاهرة المقصودة. جهده التجريبي يتركز حول تسهيل المهمة للتقليص من نسبة الاستبطان (wundt, 1886).

ومع ذلك يمكن القول، بالنظر للتطورات اللاحقة، أن خطأ فونت يكمن في عدم تحمّله للرابطة القوية بين علم النفس والاستبطان، لذلك حاول كبّحه وتقييده بدل العمل على إيجاد طرق تمكّن من ترجمة هذه المحتويات إلى معطيات عامة.

4.3 الاستبطان التجريبي النسقي

يبدو أن دور الاستبطان في علم النفس الفيزيولوجي الفونتي - نسبة إلى فونت- جدّ محدود، لذلك اتجه جيل جديد من علماء النفس إلى توسيع استعمال الاستبطان، ونلمس ذلك في اتجاهين: من جهة اعتماده في دراسة العمليات العليا، الذاكرة، التخيل، الحكم... الخ، ومن جهة ثانية لالتماس أوصاف داخلية مفحوصة وليس مجرد إجابات مؤطرة.

نحن هنا أمام توجه عام وشائع في مجالات مختلفة من علم النفس العلمي. فبعد أن كانت الذاتية عائق أصبحنا نعي أن المعطيات الذاتية يمكن أن تكون فاعلة، وتساهم في بناء نظرية متناسقة. وفي هذا السياق يعتبر ألفريد بينه Alfred Binnet أنه يمكن توسيع الطريقة التجريبية لوليام فونت لتشمل أيضا العمليات العليا (huteau, 2006). وقد أفضت هذه الممارسة إلى نتائج جدّ متميزة. إدوارد Titchener من تلامذة فوننت Wundt، يقر أن الاستبطان هو الأسلوب الوحيد لعلم النفس. حيث نجد في الدرس المتعلّق بالجدل حول وجود أفكار بدون صور، تقارير استبطانية في صفحة كاملة حول ما يقع في الذهن خلال وبعد سماع جملة بسيطة مثل: كانت تسير خفية. بهذه الطريقة لا نقوم بادراج التقرير الشفهي في قلب التقنية الاستبطانية فقط، ولكن

باستطاعتنا أيضا أن نطلب من الملاحظ أن يقدم النظرية. محتوى التقارير الاستبطانية متناسق ومنسجم مع النص الذي ينتجه عالم النفس. وظيفة عالم النفس ترتبط أساسا بإنجاز تحليل لاستبطاناته الخاصة، واستبطانات بعض الذوات.

أوزوالد كولب من تلامذة Wundt، وقائدا في ما بعد لمدرسة فورزبورغ Würzburg، طور أساليب الوصف اللفظي للاستبطان، سميت بطريقة "ورزبورغ" نسبة إلى الجامعة الألمانية التي طبقتها. وهو منهج يقوم على تكليف الفرد الإجابة على بعض الاختبارات أو الروايات، للفحص عن كيفية وصفه لحالته النفسية خلال إجابته عن اختبار معين (صليبيا، 1982). على سبيل المثال، وصف ما يتبادر إلى ذهن الشخص عندما تقرأ أمامه كلمة معينة.

في فرنسا بيار جانيت Pierre Janet، الفرد بينيه Alfred Binet وتيدول ريبو Théodule Ribot أسماء كبيرة في علم النفس الحديث. كان طموحهم تطوير أساليب منهجية صارمة لدراسة العقل. فبالنسبة لتيوديل ريبو فقد حاول تبين حقيقة علم النفس الجديد الخالي من المفاهيم الميتافيزيقية ومستوحى من أفكار علماء النفس الإنجليز والألمان. فهو يعارض الفلسفة الروحانية القائمة على الاستبطان ووضعيتها أوغست كونت، الذي ينكر إمكانية وجود علم نفس مستقل (Persiaux, 2010). أما بالنسبة لبينييه فهو يؤكد أن الاستبطان هو أساس علم النفس. ويميزه بطريقة دقيقة بحيث أن أي دراسة تتم عن طريق الاستبطان تستحق أن تسمى نفسية، وأن أي دراسة تتم بواسطة طريقة أخرى هي مسألة علم آخر (Binet, 1894, p 18).

5.3 انتقادات الاستبطان:

لقد تعرض الاستبطان لحركة نقدية واسعة حتى قبل استخدامه، ذلك أنه استخدم باستمرار في حجاج علم النفس الفلسفي قبل أن يتأسس علم النفس كمبحث تجريبي (كما هو الحال مع باركلي ودافيد هيوم). لكن هذا الاستعمال أثار مجموعة من الاعتراضات ترتبط بمختلف العقبات التي يطرحها أمام إمكانية قيام علم نفس تجريبي، وهو علم ما كان يمكن تصوّره إلا استبطانيا. ونمّيّر في تاريخ نقد الاستبطان بين اتجاهين:



الاتجاه الأول يعزى الى إيمانويل كانط الذي يصر على هشاشة المعلومات التي نستقيها من الاستبطان، الأمر الذي يجعلها غير قادرة على بناء علم على أساسها. أما الاتجاه الثاني، فيأتي من الفلسفة الإيجابية لـ "أوغوست كونت Auguste Comte" فهو ينتقد إمكانية الملاحظة الذاتية لأن الانسان لا يمكنه في نفس الوقت أن يكون ملاحظاً (بكسر الحاء) وملاحظاً (بفتح الحاء) في نفس الوقت (Sackur, 2009). ينتج عن هذين الاتجاهين النقديين موقف متباين: من جهة الاستبطان ضروري لأن علم النفس هو علم الروح، وهو علم لا يمكن ولوجه بدون استبطان، ومن جهة ثانية لا يمكن الثقة فيه كلياً. يقول ألكسندر بان Alexandre Bain: "يجب أن تجرى الملاحظات - الاستبطانية- بعناية، يجب أن تسجل مباشرة، ويجب أن تكرر في ظروف مختلفة، وأنه يجب على ملاحظين مختلفين أن يقارنوا نتائجهم. كل هذا بديهي إذا كان لنا طموح الاشتغال علمياً" (Sackur, 2009). هذا ونشير إلى أن المسألة بالأحرى ارتبطت في بداية علم النفس العلمي بضبط حصّة كلّ من الاستبطان والتقنيات السلوكية، وليس بخيار ثنائي وهو هل ندرس بالاستبطان أو بدونه ؟ ولعلّ هذا ما كان يطمح إليه "وليام فونت w. wundt": تأطير الاستبطان قصد إدماجه، قدر الإمكان، مع الطرق المخبرية الأخرى.

6.3 جون واطسون والاستبطان:

الاستبطان التجريبي النسقي والاستبطان الفونتي منهجين متعارضين، لكن جون واطسون John Watson لا يهتمّ بهذه التفاصيل، ويصنّف الكلّ (جيمس، فونت، تشنر، وليام ماكدوغال...) ضمن الاتجاه الاستبطاني. أما بالنسبة له فإن الوعي غير موجود ومن ذلك يجب على علم النفس أن يتخلى تماماً على طريقة الاستبطان (Schlanger, 2001)

لواطسون حجتين ابستمولوجيتين ضدّ الاستبطان، ففي مقال "علم النفس كما يراه السلوكيون" سنة 1913 كلّ شيء يدور حول فكرة عقم الاستبطان، فهو يلاحظ أن هناك عدّة تعارضات بين المخبر التي تستخدم الاستبطان، ومنها التعارض حول إمكانية وجود أفكار بدون صور. ففي حالة الاستبطان لا يمكننا الارتكاز على أية حجة عامة. في الفيزياء أو الكيمياء يمكننا تكرار التجارب أو تحسين الوسائل، بينما في علم

النفس الاستبطاني لا نستطيع القيام بأي شيء في حال واجهنا مشكلا ما، وإلا فنحن ننقد المجرب- الملاحظ ذاته-، ومن هنا يمكن القول- حسب واطسون- أن علم النفس الاستبطاني (الفونتي أو الجذري) ولد ميتا منذ لحظة ميلاده. بخلاف الفروع الأخرى لعلم النفس (التطبيقي، المرضي، الحيواني، التربوي...) التي تستخدم المناهج الموضوعية (اختبارات، مناورات لتعديل السلوك...).

7.3 الاستبطان والمعرفة:

إن حضور الاستبطان في علم النفس كثيرا ما يتوارى في شكل ثوب جديد لعلم النفس الموضوعي، وغيابه وهم ناتج عن تصوّرنا التقليدي له، تصوّر يحصره في طريقة بينيه أو تيتشنر. لكننا في الحقيقة في الوقت الذي نتقبّل فيه أن علم النفس يتطور ببناء مناهجه الخاصة، ندرك أن بعض هذا التقدّم ليس سوى أجراً للعملية الاستبطانية، وفي بعض الحالات عودة إلى استبطان فونت. حقا يمكن اعتبار هذه الأجرأة نوع من التناقض باسم تصوّر معيّن للذاتية (التي لا تتحمّل الطرق المخبرية)، لكن علينا أن نتعلّم التعرف عليها في أماكن وتحت أشكال لم نألّفها.

لتعزيز هذه الفكرة يمكن العودة إلى جورج سبرلينغ George sperling أحد رواد علم النفس المعرفي، ودراسته حول معالجة المعلومة البصرية، إذ بين أنه عندما تصل المعلومة البصرية إلى الدماغ نكوّن تمثيلا سريع الزوال (أيقونة) قبل أن ينتقي الانتباه الأجزاء لمعالجة ذات مستوى عال. فالذاكرة الأيقونية تشتغل كذاكرة ختم Tampon، وتتميّز بقدرتها الكبيرة وبسرعة زوالها، وباحترامها لتشفير بصري-مكاني. هذه المعطيات هي نتاج سلسلة طويلة من الاستبطانات. وقد بينت تقنية "التقرير الجزئي" التي اعتمدها في دراسته دور وأهمية الاستبطان الذاتي (Huffman, 2007).

إن علم النفس المعرفي يهتم بدراسة العمليات الذهنية (الإدراك، الانتباه، الذاكرة، الانفعالات، الإحساس، اللغة، حل المشكلات...) وبعثت العلوم النفسية السيكوفيزيائية كالدراستات المتعلقة بالصوت والضوء والالوان (دويدار، 1999، ص 53). وهي مرتبطة بسيرورات ذهنية عند الفرد هي التي تشكل عكس ما جاءت به



المدرسة السلوكية ومفهومي (مثير/ استجابة) في تشكيل السلوك. مفهوم السلوك عند المعرفية سيتحول إلى مفهوم اتخاذ القرار. وقد توصل علماء النفس عن طريق الاستبطان إلى التعرف على حقائق علمية مهمة وهي أن الإنسان لا يستطيع أن ينتبه إلى شيئين اثنين في نفس الوقت. كما لا يمكنه أن يشعر بالفرح والحزن في نفس الوقت. (دويدار، 1999، ص 53). هذه الحقائق ما كان ليعرفها الانسان لولا الاستبطان.

علم النفس المعرفي إذن سيعود إلى منهج الاستبطان الذي كانت تعتمد المدرسة التجريبية في بدايات علم النفس، والذي تراجع مع ظهور التيار البارديغم السلوكي. لكن مدرسة علم النفس المعرفي ستعود إليه من خلال الاهتمام بالعمليات الداخلية. فنحن لا يمكننا معرفة تمثلاتنا وإحساسنا بالمتعة والرغبة والنفور والأمل والخوف وتصوراتنا الداخلية لظواهرنا الخاصة لولا التأمل الذاتي الذي يمثل المصدر الوحيد للمعرفة النفسية. أضف إلى ذلك لا يمكن علاج المريض دون أن نسأله عن شعوره أو مدى إحساسه بالالم . (دويدار، 1999، ص 53).

كما أن الاستبطان هو الوحيد القادر على دراسة بعض الظواهر والأحوال النفسية كالأحلام وأحلام اليقظة وشعور الفرد اثناء الانفعالات. كما انه يقوم بالدور الكبير أثناء الدراسات التجريبية حينما نسأل الشخص الذي تقوم عليه التجربة أن يصف لنا ما يرى أو يسمع أو ما يشعر به بعد مجهود ذهني طويل رتيب (الفخراي، 2014، ص 62). ثم أن منهج الاستبطان في الأساس تبنى عليه جميع القياسات النفسية الموضوعية أو الاسقاطية. فنحن لا يمكننا أن ندرس استجابات الروشاخ دون أن نسأل المفحوص عما يجول في نفسه وهو نوع من استبطان الذات.

الاستبطان لا غنى عنه حتى في الطب إذ أن الطبيب لا يمكنه مباشرة العلاج دون الاستماع إلى ما يرويه المريض من احساسيس ومشاعر. ويسترشدها في تشخيص المرضه ومتابعة مآله.

4. الخاتمة:



ظل الاستبطان المنهج السائد في الدراسات النفسية حتى أواخر القرن الماضي. وقد تعرض لاحقا للكثير من النقد. ومع ذلك، فإن الحجج النقدية المتعلقة بأساليب الاستبطان موزعة ما بين نقد صوري لا يحمل إلا الاسم ونقد بناء داع على الفور إلى تطويره.

لقد بدأ علم النفس كمبحث استبطاني لكن سرعان ما وضع السلوكيون حدًا لهذه الممارسة بإخراجها من دائرة المخابر، وهو ما يوجي لأول وهلة بالتعارض التام بين المقاربة الاستبطانية والمنهج السلوكي. فهي تنفي امكانية دراسة الحالات الشعورية الفردية كالإحساس بالألم أو الشعور بالفرح أو الغضب دراسة علمية إلا إذا أمكننا التعبير عنها تعبيراً خارجياً باللغة أو الإشارة أو الحركة كي يتسنى لغيره ملاحظتها والتحقق من صحتها. وهذا تناقض صريح من واطسون عندما ندرك أن اللغة أو الحركة أو الإشارة ما هي إلا تعبير عن ما يجول في خاطر ومبدأها الاساسي استبطاني.

حقيقة عرف الاستبطان نوعاً من التراجع لكنه عاود الظهور خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين. وهناك سببين رئيسيين لعدم الانتباه إلى دوره وهما: الرؤية المنحرفة لتاريخ علم النفس، والتي تبالغ في التركيز على التصدّع الذي أحدثته فيه المدرسة السلوكية، والتحوّل المستمر الذي شهده الاستبطان، ما جعله يظهر، في بعض الحالات، بثوب جديد يتعدّد معه الكشف عنه.

وختاماً وعلى الرغم من انتقادات الاستبطان وعيوبه. إلا أنه لا زال يحتفظ بجذواه. ولا يمكننا الاستغناء عنه ولكن يمكننا جعله أكثر قبولاً بتطويره وتوسيع حدوده.

قائمة المراجع:

1. ابو غزال، معاوية محمود. (2015). علم النفس العام. ط2. عمان. دار وائل للنشر.
2. دويدار، عبد الفتاح محمد. (1999). مناهج البحث في علم النفس. ط2. الاسكندرية. دار المعرفة الجامعية.

3. زيعور علي. (1993). علم النفس في ميادينه وطرائقه. بيروت. مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر.
4. السامراتي وآخرون (2011). مقدمة في علم النفس. عمان. دار زهران للنشر والتوزيع.
5. صليبا، ج. (1982). المعجم الفلسفي. الجزء الاول. بيروت، لبنان. دار الكتاب اللبناني.
6. الفخراني، خالد ابراهيم. (2014). علم النفس العام. جامعة طنطا. جمعية جودة الحياة المصرية
7. لالاند، أ. (2001). المعجم الفلسفي. الجزء الأول. ترجمة. خليل. أ. بيروت، لبنان. منشورات عويدات.
8. لطفي الشربيني (2004). معجم مصطلحات الطب النفسي. مركز تعريب العلوم الطبية. الكويت. مؤسسة الكويت للتقدم العلمي.
9. مطاوع، ابراهيم عصمت. (1981). علم النفس واهميته في حياتنا. القاهرة. دار المعارف.
10. المليجي، حلمي. (2000). علم النفس المعاصر. ط8. بيروت. دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

1. Binet. A (1894). **Introduction à la psychologie expérimentale**, p 18.
2. Bitbol M. & Petitmengin C. (2013). **A defence of introspection from within. Constructivist Foundations** 8(3): 269–279.

3. Declan Smithies (2013). **On the unreliability of introspection.** Springer Science + Business Media Dordrecht. Philos Stud N°165. pp 1177–1186. DOI 10.1007/s11098-013-0150-6
4. Dumas, G. (1930). **nouveau traite de psychologie.** Paris. librairie felix alcan.
5. Edwin A. Locke (2009). **Introspection Out of the Closet.** University of Maryland at College Park. Perspectives on psychological science. Volume 04 (01). Pp24-25.
6. Huffman, K. (2007). **Introduction a la psychologie.** Québec. Groupe modulo.
7. Huteau, M. (2006). **Alfred binet et la psychologie de l'intelligence. le journal des psychologues.** pp. 24-28.
8. Jérôme Sackur. (2009). **L'introspection en psychologie expérimentale.** Revue d'histoire des sciences. Tome 62. pp 349-372.
9. Julien maxime.(2013). **La psychologie descriptive de Franz Brentano face aux débats contemporains sur la conscience.** Thèse présentée en cotutelle comme exigence partielle du doctorat en philosophie. Université du Québec à Montréal et université pierre-Mendès France. p62.
10. Phénomènes intellectuels. **Pensée et attitudes mentales.** (1920). L'année psychologique. pp. 480-484.



11. Renaud Persiaux. (2010). **Ribot, Binet, Janet : Naissance des sciences de l'esprit.** Dans Cinq siècles de pensée française. Ouvrage Une collection dirigée par Véronique Bedin. ed la petite Bibliothèque des sciences Humaines. pp 70 - 73
12. Vattimo, G. (2002). **Encyclopédie de la philosophie.** Librairie générale française.
13. wundt, w. (1886). **Éléments de psychologie physiologique,** volume 2, traduction Elie Rouvier, ed Felix Alcan. Paris. pp 39-68.

